المحاضرة الثانية : ابتكار موضوع البحث و شروطه

تمهيد:

الباحث في مجال العلوم و الفلسفة مُجبر و مُلزم على المطالعة و القراءة المستمرة للنصوص التي ينتجها و ينشرها الباحثون، و ليعلم أن كل نص –بحث ، مذكرة ، اطروحة، كتاب، مجلة محكمة...تتناول نموذجا يستأنس به في معرفة جوهر البحث و المراحل التي تحرك فيها الباحث بفكره و ادواته العقلية و اللغوية ، و هي في الأصل طرائف عمل بها الباحثون ذوي التجربة و الحنكة (أصول الخطاب الفلسفي، يعقوبي محمود ص5). فكيف نكتشف الموضوع الذي نشتغل عليه في البحث و ما هي الشروط المنهجية المساعدة على ذلك؟

أولا : اكتشاف الموضوع:

إنّ الذي يتفق عليه الباحثون هو : إن البحث الفلسفي لا يأتي من العدم، و أن المعرفة هي التي تنتج المعرفة و هكذا التسلسل. فيلزم عن هذا ضرورة الخبرة المكتسبة بالدراسة و المطالعة للاسترشاد و معرفة المسلك الذي يتوجه فيه، لأن تجربة السابقين من شأنها أن تنوّر طريق الباحثين و لكن يجب توخي الحذر حتى لا يبقى مقلدا أعمى.

على الباحث الناشئ أن يجتهد من بداية طريقه، يتابع محاضرات أساتذته و النصوص التطبيقية التي تعمق آثار الأفكار التي تختمر في الذهن بالمناقشة الاستدلالية المركّزة الهادفة وترتيب الأفكار و تدوينها حتى لا تضيع و يسهل استدعاءها عند الحاجة. و بعد الانفتاح على الموضوعات المختلفة من خلال الدروس يلزمه المسارعة للكتب و المجلات و أعمال المؤتمرات و الأطروحات التي نوقشت بجدية حتى يكون أمام نشاط حقيقي من شأنه أن يغذي ذاكرته بحمولة معرفية أكثر دقة و أوسع نطاق تجعله قادرا على القيام بحوار بينه و بينه و بين ذاته و بينه و بين الكاتب أو الباحث الآخر. و هذه الخبرة الأولية ممكن أن

تتحول لديه إلى قدرة على ممارسة التفلسف و هذه القدرة على التفلسف تولد لصاحبها قدرة على ابتكار البحث الفلسفي.(أصول الخطاب الفلسفي، ص84).

هذا، و ليتأكّد الباحث في الفلسفة بأن سر البحث فيها يبدأ من توفير هذه المهارة التي تتطلب صبرا و استمرارية و مداومة بالفعل و بالانفعال. فمادامت النماذج التي ذكرناها متوفرة فمن الضروري أن يستقريها و يتفحصها لأنها مجهود من سبقه تتوفر على أهم محطات البحث التي استخدم فيها الباحث المؤلف أدواته و معارفه.فحين تستفز الحاجة الى المعرفة بسبب الجهل و النقص، و حين تتحرك قريحة حب الحقيقة يتقوى الباحث و يسعى إلى ذلك فتنبعث فيه المشكلة الفلسفية أو على الأقل ينتابه شعور يستفزه على جهله و من هنا تبدأ معركة التساؤل و تلبية الفضول. لكن ما هي الشروط المساعدة على ذلك؟. ليعلم الباحث أن هذه الشروط لا تأتي إليه طائعة جاهزة بل هو من يصنعها و يرتبها و يوفرها تارة تكون سهلة المنال و أحيانا تتطلب منه الجهد و الصبر.

أولا : ماذا يكمن أن يُعرف لابتكار موضوع البحث؟

1/ كثرة الإطلاع :

النظر الفلسفي يكون شاملا من جميع الجوانب، و لجميع المعارف، لا يستخف بأي رأي أو معلومة قريبة أو بعيدة، فمثلا: أزمة المعاصرة ، التخلف، ينظر إليها السياسي الاقتصادي السوسيولوجي السيكولوجي ، الشرائع...كل من زاويته، لكن الفيلسوف يكون تساؤله شاملا كليّا. لهذا لا يمكن أن ينجح الباحث في الفلسفة في تساؤله و اكتشاف موضوعه إذا لم يجمع بالاطلاع على نظرة العلوم و الفنون و الشرائع. و غير بعيد يدرك فلسفة ديكارت و تأثرها بالرياضيات ، و فلسفة أرسطو و تشكلاتها مع المنطق و الميتافيزيقا و فلسفة ابن رشد بالمنطق و علم الاصول و علم الكلام...

لهذا ،الطالب الباحث يجب عليه ان يستحضر كل المعارف والخبرات التي حصل عليها في المواد الأخرى خلال مسار تكوينه، لأن تساعده على التفلسف و اكتشاف القضايا الهامة و مشكلاتها.

2 : النظرة الشاملة لجميع المعارف:

الباحث في الفلسفة يستوجب منه أن تكون معارفه منفتحة و شاملة لجميع مصادر المعرفة، و ان يستقري كل ما يجده من المعارف لأن تمسكه بالخصوصية الفلسفية في النظرة و في التساؤل و في المنهج لا تحجب عنه الميادين الأخرى، لأن النظريات الفلسفية لا تنفصل عن الإنتاج العقلي في العلم و في الدين، كما أن الكثير من الأسئلة الفلسفية أجاب عنها العلم و نبتت عنه تساؤلات جديدة. مثلا : لا يستطيع الباحث ان يستشكل في فلسفة الرياضيات الاّ بالاطلاع على تاريخها و التطبيقات التي عرفتها في الميادين الاخرى بالبيولوجيا و الطب و التكنولوجيا ..

3: التحرر من سلطة الآخرين:

الباحث يطالع و يستقري النصوص دون أن يبقى أسير نظرية أو مذهب بعينه حتى ينفتح على النقد و التجديد، لأن الافكار قد تسيطر على عقل أو عقول أو أمة بكاملها، و هذه السيطرة تكلّس العقل و تُربقه و تمنعه من الابتكار، حتى لا يتساءل عن ماذا أزيد عن ما قاله الفيلسوف الكبير الفلاني او العالم فلان ووو.فأرسطو تحرر من سلطة فابتكر، و الفارابي تحرر من لغة اليونانيين فحرر لغة المنطق العربي، الغزالي تحرر لما استلهم لغة الأصوليين و المتكلمين و الفلاسفة و ابتكر معجما جديدا...

4: تحري الدقة و الاجتهاد في السعي للحقيقة:

التعامل مع النصوص و الدلالات و المعاني الفلسفية يجب أن يكون دقيقا، أو على الأقل يتدرب الباحث على اقتفائها من لغة الفيلسوف في نسقه– الكلمة الوحدة لها معاني مختلفة

من فيلسوف لأخر و من علم لأخر مثلا: الله عندارسطو ليس الله عند ديكارت ، و الله عند المسلمين حقيقة تختلف عنهم تماما . فضلا عن تصور الباحث ما يمكن تفسيره و فهمه و الخروج من نفقه بأدوات ممكنة و أفكار لا تتجاوز عقله.

ثانيا: كيف يوظف الباحث أدواته العقلية لابتكار البحث؟

لا شك في أن المعارف وحدها لا تكفي لاكتشاف موضوع جاد للاشتغال عنه، فكما أن الرمال و الحديد و الاسمنت لا تبنى وحدها البيت الجديد كذلك لابد من كفاءات و مهارات يحسن استعمالها بالاستئناس بالطرق الناجحة التي استعملها الباحثون و الفلاسفة حتى يوفر الجهد و السرعة في انجاز ما يشتغل عليه و نذكر منها :

أ: تسجيل المعلومات و الأفكار : الباحث و هو يقرأ و يمسح و يطالع يسجل كل فكرة يراها ضرورية و مهمة تخدم بحثه و موضوعه في أي جزء منه، فمادام التعامل يكون مع النصوص فلابد من تدقيق الجمل و الفقرات و ترتيبها و تنظيمها حتى يسهل الرجوع اليها و توظيفها في محلها و استخلاص الآراء و المواقف و الحجج و الأدلة منها. الكتابة نحارب بها النسيان و الضياع.

ب: الاستشكال بوضوح: نقصد بالاستشكال تحويل القضايا و الموضوعات إلى محل تساؤل جديد حول حقائق الأشياء و عن عللها القصوى؛ و تتضمن صيغة السؤال جميع الاحتمالات الممكنة و الافتراضات الحاصلة و هي التي تكون معلم الطريق الذي يسلكه الباحث في تحليل المشكلة و سنفصل هذا في درس مستقل لاحق.ولابد أن تكون المشكلة ليست في متناول العالم و لا جميع الناس، يعني ينبغي البحث عن المشاكل الفلسفية خارج نطاق المعارف العامة و خارج المعرفة العلمية .(اصول الخطاب الفلسفي ص96)

ج: تحليل الالفاظ و التراكيب: يجب البحث عن المعاني و الأسرار في وسط حشد من الألفاظ و التراكيب التي تدل على معرفة الكلمات ووظائفها، و فهمها يسهل الابتكار يقول

ديكارت: و الثانية أن أقسّم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى عدد من الأجزاء الممكنة و اللازمة لحلها على أحسن وجه. و الثالثة أن أرتب أفكاري. فأبدأ بأبسط الأمور و أيسرها معرفة، و أتدرج في الصعود شيئا فشيئا حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيبا، بل أن أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضا بالطبع. و الأخيرة أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات كاملة و مراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا(ديكارت رونيه، مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا بيروت1953، ص75، اصول الخطاب،ص98)

د: المرونة الفكرية: الباحثون تتشكل لديهم أفكارا و تصورات إن ترسخت تكلّست و تصبح عير قابلة لفكرة جديدة حتى لو بنيت على دليل، و هنا تصعب مهمة التغيير و التجديد و يُحشر الباحث في زاوية واحدة، فينحرف عن الهدف العام و الفلسفة سعي إلى الحقيقة بالحجة و بالبرهان.

خلاصة :

التجديد في البحث الفلسفي قصد كل باحث يأخد الأمور على محمل الجدية يبدأ بقراءة كل ما يجده حوله لتنفتح قريحته على أهم القضايا و يعرف جهود الباحثين و مسالكهم و أدواتهم، و يطلع على لغتهم و المعاني التي تحملها دلالاتها، و يتفاعل مع المشكلات بمرونة ليس ليقبع عندها بالترف المعرفي الانفعالي، بل يجتهد ليكون فاعلا في التصورات و في التصديقات و يؤكد جهده بالبناء و التأليف الذي يطلع به الآخرين.